بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَنْظُومَةُ :

النَّحْوُ لَيْسَ غَايَةً

وَيَلِيهَا:

«شَرْحٌ مُبَسَّطٌ عَلَيْهَا»

للشَّيخِ الفَاضِلِ:

نَزَار بْنُ هَاشِمِ العَبَّاس

-حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى، وَبَارَكَ فِيهِ وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ-..

.. حقيقةً، هنالك شخصٌ كان يسأل عن النحو (كذا) وبعض الأمور، فأحببت أن أفيده ببعض الأبيات –عسى أن تفيدكم إن شاء الله–. وقلت فيها:

(هذا المسكين يقول:

قد كانوا على الكلام بالسَّلِيَقةْ ** لُغَتُنَا مخلـــوقةٌ قديمـــةْ
فوُفِّقـــُوا للنَّحو حينها لِغايةْ ** صيانةً لتلكم الديانـــةْ
واحذر من عِلْمِهَـــا البلاغة ** فَفِيهَا ما يقودُ للضلالةْ
كالقول بالمجاز للنِّكاية ** تأويلُها والشَّدْقُ كالخَطَابَة
واعـــلم بأن النَّحْوَ ليس غايةْ ** لكنه وسيلةٌ لسنَّةٍ وآيَةْ
كذا أصولُ الفقهِ والحديثِ ** لو قَلَّبَ الأمورَ في غِوايَةْ
وليَسْلَمِ الكلامُ في الحِكَايَةْ ** تَحْمِلُ عِنْدَهَا لله رايـــَةْ
وحين تُعْرِبُ الألفاظَ بالرِّوايَة ** وَتُعْطِ كُلَّ مَبْنِيٍّ عَلامَة
آخِذَاً بِشِعْرِهَا للمَعْنَى ** وَصَرْفِهَا مِنْ زَادِهَا لِلرِّحْـــلَة
وَكُنْتَ نَحْوَ الله في هِدَايَة ** حُزْتَ عِلْمَ النَّحْوَ في النِّهَايَة)..

هذه هي الأبيات، طبعاً هي ليست بالنسق الشعريِّ الصرف، لكن هي تقريبٌ للمعاني.

..«شرحٌ مختصرٌ»..

كثيرٌ من الشباب يحبُّون علو النحو، وهذا شيءٌ جميلٌ. لكنهم يقعون في الغلو والتنطع فيه، يجعلونه علماً غائيًّاً أو علماً أصليًّاً، يهملون بذلك العلوم الأساسية والتي من أعظمها علم العقيدة والتوحيد السلفي. ولذلك لو مات شخصٌ –والعياذ بالله– وقد حوى النحو كله وحوى علوم اللغة العربية كلها، ولكنه مات على غير العقيدة فإنَّه في ضلال –والعياذ بالله–. فلذلك لا بدَّ أن نعلم أنَّ (النحو) كما قال سلفنا: [هو كالملح للطعام]؛ يُؤخَذُ منه بقدر ما يستسقى منه لمعرفة الأحكام الشرعية.

فهذا معنى (قد كانوا على الكلام بالسليقة)..

يعني: كانت العرب فيما مضى يتكلَّمون بلا معرفة قواعد؛ لأن الله خلق لهم هذه اللغة على هذه الصورة. وهذا من آيات الله؛ فإنَّ اللغة العربية من آيات الله العظيمة الباهرة. وهذه اللغة خلقها الله ﷻ،

ولذلك هذا معنى (لغتنا مخلوقة قديمة)..

ليست من اجتهادات الناس، وإنما خلقها الله، خلقها في الألسنة بقدرته الباهرة ﷻ . ثم لما جاء الإسلام، ونزل هذا القرآن على لغة (قريش) ولغة العرب –وكانوا

حينها على لغةٍ واضحة–، وعُرِفَ القرآن وعُرِفَتِ السنة. ثم بعد موت النبي ﷺ وَرَفْعِ رايات الجهاد دخل في الإسلام أناسٌ من غير أهل اللغة العربية، فدخل اللحن. فحينها وفقهم الله ﷻ لوضع قواعد النحو هذه.

وخلافٌ بين أهل العلم: من هو أول من وضع قواعد النحو؟

* فمنهم من يقول: هو أبو الأَسْوَد الدُّؤَلِّيِّ، فعل ذلك بأمرٍ من علي بن أبي طالب ﷺ وقد توفي أبو الأَسْوَد الدُّؤَلِّيِّ –رحمه الله– في عام سبعةٍ وستين هجرية، وهذا قولٌ.

* هو كلامٌ كثيرٌ عند العلماء في هذه النقطة، ومنهم من يقول: وضعها غيره من الناس، أو: هو قد بدأ إعجامَ الحروف (يعني: وضع النقاط على الحروف)؛ لأنهم كانوا يكتبون الحروف بدون تنقيطٍ. أعجَمَ هذه الحروف، ثم تقدَّم هذا العلم ووُضِعَت له قواعد وكُتُب، وتكلَّم فيه الكثيرون، وكتبوا فيه أموراً عظيمةً؛ كـــ(الخليل بن أحمد)، هذا من علماء السلف، ومن السلفيين –رحمه الله تعالى–، وضع شيئاً من هذه القواعد. وقد تُوُفِّي في مئةٍ وخمسةٍ وسبعين هجرية. ثم قام –تلميذه بعد ذلك–: (سيبويه) –رحمه الله تعالى– وأيضاً كان ممن سار على المنهج السلفي، وألَّف كتابه المعروف في النحو، الذي سُمِّيَ حينها بـــ(الكتاب). وإذا أُطْلِقَ لفظُ (الكتاب) في كتب العلم ينطلق الكتاب –بعد كتاب الله– إلى كتاب سيبويه في اللغة. وهذا تلميذٌ للخليل بن أحمد، وتُوُفِّيَ –رحمه الله– في عام مئةٍ وثمانين هجرية.

ولذلك ذكرتُ فقلت: (فوُفِّقـــوا للنَّحو)..

يعني: هذا العلم توفيقٌ من الله، هو الذي وفَّق من وفَّق بغضِّ النظر: عمَّن هو؟ ومن هو الذي فعل؟. لكن الأمر في آخره يرجع إلى توفيق الله لهؤلاء؛ لأنَّ حفظ النحو وحفظ اللغة العربية هو حفظٌ من الله لكتابه وسنة نبيِّه ﷺ. وهذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا له لحافظون﴾.

ولذلك قلت حينها: (فوُفِّقــُوا للنَّحو حينها لغايةْ)..

خافوا على الدين من اللحن ومن الخلل في اللغة، ولذلك وضعوا هذه القواعد لينضبط لنا ديننا في كتاب ربنا وفي سنة النبي ﷺ.

(صيانةً لتلكم الديانة)..

يعني: الإسلام. ثم: من هذه العلوم التي ينبغي الحذر منها؛ لأنها دخل من خلالها بعض أهل البدع –كالقول بالمجاز، وبالتأويل الفاسد– قلت:

(واحذر من عِلْمِهَــا البلاغة ** فَفِيهَا ما يقودُ للضلالةْ)..

لأن أهل البدع دخلوا من خلال هذه البلاغة –كالقول بالمجاز، وكالقول بالكناية–. [و] أنا سمَّيتها (نكايةً)؛ لأنها نكايةٌ على الشريعة إذا أُعْمِلَت بالصورة البدعيَّة والفاسدة. ودخلوا باسم التأويل فحرَّفوا شرع الله، وحرَّفوا الأسماء والصفات، وحرَّفوا حتى الطاعات والعبادات. ولذلك قلت:

واحذر من عِلْمِهَــا البلاغة ** فَفِيهَا ما يقودُ للضــــلالةْ

كالقول بالمجاز للنِّكاية ** تأويلُها والشَّدْقُ كالخَطَابَة

كذلك (البلاغةُ) من تعلَّق فيها وحمله ذلك على التَّشدُّق، وعلى التَّفصُّح وإظهار ما عنده من ملَكَات الخطابة –والعياذ بالله– هذا –والعياذ بالله– من الضلال؛ لأنَّ هذا من الرياء. ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف على أمَّتي منافقٌ عليمُ اللسان»، وذمَّ المتشدِّقين في الكلام.

بل الإنسان يتكلَّم بلا تكلُّفٍ، بلا تعجُّلٍ، بلا تشدُّقٍ. وإنَّما يتكلَّم ليُفْهِمَ السامع ما يريدُ اللهُ ويريد رسولهُ من شرعه ودينه.

ثم ذكرت بعد ذلك فقلت:

(واعـــلم بأن النَّحْوَ ليس غايـــةْ)..

ما هو غايةٌ، وإنَّما هو وسيلةٌ، ولذلك ذكرت بعدها أنَّه وسيلةٌ للشريعة:

(لكنـــه وسيـــلةٌ لسنَّـــةٍ وآيـــَـــةْ)..

كذلك من هذه الأمور التي يتصارع عليها بعض الطلاب، يتصارعون على (أصول الفقه) وعلى (أصول الحديث والمصطلح) ويُغرِقون أنفسهم فيه وينسون العلوم الأساسية من التوحيد والعقيدة السلفية. ولذلك قلت:

و (كذا..)

يعني: في ذلك المعنى –أنَّه ليس بغايةٍ–.

(وكذا أصولُ الفقهِ والحديثِ ** لو قَلَّبَ الأمورَ في غِوايَةْ)..

لو جعل الغاية وسيلةً، والوسيلة غايةً غوى وانحرف عن المنهج السلفيِّ الصحيح، وإنَّما المراد من النحو: أن تُبْعِدَ كلامك من اللحن والخطأ في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام العرب وكلامك حين خطابك للمسلمين. ولذلك قلت بعدها:

(وليَسْلَمِ الكلامُ في الحِكَايَةْ)..

حينما تحكي الكلام. فإذا فعلت ذلك بإخلاص النية والمشي على المنهج السلفي الواضح: (تَحْمِلُ عِنْدَهَا لله رايــَةْ)، راية الحق والعلم والدين.

(وحين تُعْرِبُ الألفاظَ بالرِّوايَة)..

(تُعْرِبُ الألفاظَ) يعني: لا تلحنُ في الكلام. وهذا نعمةٌ، ونادرٌ من يسلم من اللحن إلا من عصم الله.

(وحين تُعْرِبُ الألفاظَ بالرِّوايَة)..

تعرفُ: كيف أعْرَبَتِ العربُ كلامَها؟. و(الإعراب) معروفٌ بحركاته الأربع: الرفع، والخفض، والنصب والجزم. هذه هي الحركات. فتعرِفُ متى ترفع؟ ومتى تنصب؟ ومتى تجزم؟..

(وحين تُعْرِبُ الألفاظَ بالرِّوايَة)..

وذلك ما عُرِفَ إلا عن روايَتِنَا عن العرب.

(وَتُعْطِ كُلَّ مَبْنِيٍّ عَلامَة)..

لأن المنطوقات إمَّا أن تكون مُعْرَبَةً، وإما أن تكون مبنيَّةً. تعرف ماذا تُعْرِب؟ وتعرف ماذا تَبْنِي؟؛ لأنه يستحِّق البناء.

..... *** وَتُعْطِ كُلَّ مَبْنِيٍّ عَلامَة

(وآخِذاً بِشِعْرِهَا للمَعْنَى)..

وتَعْرِفُ شيئاً من أشعار العرب؛ لأنها تفيدك في معرفة معاني الشريعة. وتأخذ شيئاً من (الصَّرف). ولذلك قلت:

(وآخِذاً بِشِعْرِهَا للمَعْنَى *** وَصَرْفِهَا مِنْ زَادِهَا لِلرِّحْـــلَة)..

وتعرف (الصرف)، تصريف الكلام، وأصول الكلام، وأصول الأفعال وما شابه ذلك.. وما يتعلَّق بالأسماء: من أين اشْتُقَّتْ؟

(وَصَرْفِهَا مِنْ زَادِهَا لِلرِّحْـــلَة)..

فإذا كنت قد حويت هذه العلوم بما يكفيك في الدين. وهي علم النحو، وعلم البلاغة –مع الحذر!–، وكنت عارفاً بلغة العرب في أشعارها، وكنت عارفاً بمعاني لغة العرب وعارفاً بشيءٍ من الصرف. وهذه هي العلومُ الخمسةُ للغة العربية –إن شاء الله– الصرف، والنحو، ومعرفة المعاني، ومعرفة البلاغة..

(وَكُنْتَ نَحْوَ اللهِ في هِدَايَة)..

يعني: كنت مع ذلك في طريق الله، على المنهج السلفي، مقبلاً على الله.

(حُزْتَ عِلْمَ النَّحْوَ في النِّهَايَة)..

يعني: وُفِّقْتَ لعلم النحو في النهاية. و(النهاية) المراد بها هنا:

*النهاية العظيمة –إن شاء الله– برحمة الله.

*أو: النهاية في معرفة النحو.

*أو: النهاية: أن تعلم أنَّ النحو يتكلَّم عِلْمُهُ عن نهاية الكلمات، هذا هو (الإعراب).

هذا معنى:

وَكُنْتَ نَحْوَ اللهِ في هِدَايَة *** حُزْتَ عِلْمَ النَّحْوَ في النِّهَايَة..

❁ ❁ ❁

هذا –باختصارٍ شديدٍ– ما يتعلَّق بهذه الأبيات البسيطة المختصَرَة التي –يعني– عسى أن تُوْضِحَ لكم المعاني. وأنا الآن أعمل على شرحها بتوسُّعٍ في أوراقٍ –إن شاء الله تعالى–.